

مكتبة الجاحظ^(١)

المؤلف: عبد السلام هارون

أعني بها تلك الآثار التأليفية التي خلفها الجاحظ، زعيم البيان العربي وشيخ كتاب العرب، وأستاذهم الأول فيما يشهد الحق.

وقبل أن نتوغل في هذا البحث، الذي أردنا به التنويه بفضل هذا الرجل وإظهار مآلوته الأيام من براعة عبقريته نقدم له بترجمة يسيرة.

فهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، لقب بهذا اللقب لجحوظ عينيه جحوظا ظاهرا. وقد أكتسبه ذلك الجحوظ قبحا ظريفا، جعله أداة صالحة للتنذير والمفاكة قال الجاحظ: ذكرت للتوكل لتأديب بعض ولده. فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم. وصرفتي.

وقال الجاحظ أيضا: ما أخجلني أحد مثل امرأتين، رأيت إحداهما في العسكر وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام.. فأردت أن أمارحها فقلت: انزلي كلي معنا! فقالت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا.

وأما الأخرى فإنها أتتني، وأنا على باب داري، فقالت: لي إليك حاجة، وأريد أن تمشي معي! فقمتم معها إلى أن أتتني إلى صائغ يهودي فقالت له: مثل هذا اوانصرف. فسألت الصائغ عن قولها فقال: إنها أتتني إلى بنفس وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان فقلت ياسيدتي: مارأيت الشيطان! فأنت بك لأنقش الفص على مثالك!

والجاحظ عربي، فهو كنان يمتد إلى كنانة بن خزيمة، وهو حجة ضد الشعوبية الذين يزعمون أن الأدب العربي واللغة العربية لم تنهض إلا على أكتاف الموالى والفرس.

(١) محاضرة القيت في نادي دار العلوم في ٤ من مارس سنة ١٩٥٣

ولد الجاحظ بالبصرة سنة خمسين ومائة ، وتوفي بها سنة خمس وخمسين ومائتين
منحه الله عمرا طويلا ، استغله استغلالا صالحا في نصرة البيان العربي ، وإذاعة الثقافة
الإسلامية ، . فكان زعيم مدرسة أدبية تنتهي إلى الاسباب ، ولطف الاحتجاج ،
ودقة التبيين مع إشاعة الفكاهة والتهكم . وكان أيضا زعيم مدرسة دينية ، فكان رأس
فرقة من فرق الاعتزال ، عرفت بالفرقة الجاحظية .

التأليف في عصر الجاحظ

عاش الجاحظ في دهر كان يزخر بالعلوم والآداب ، هو العصر الذهبي للأمة
العربية ، عصر هارون والمأمون والمتوكل ، حين كانت معاهد البصرة وبغداد
والكوفة وقرطبة وسائر عواصم الاسلام ، تفيض بالآداب والعلوم والفنون ، وكان
المعین فياضا مترعا ، والتأليف والترجمة لها دوى شديد في كل صقع ، والعلماء
والآدباء في نشاط عجيب ، يصل الليل بالنهار والغدو بالآصال .

فعاصر الجاحظ من علماء العربية أبا عبيدة ، والأصمعي ، وأبا زيد الأنصاري
وكانوا جميعا شيوخه . وأخذ النحو عن أبي الحسن الأخفش ، والكلام عن النظام
وشافه الجاحظ فصحاء العرب الذين كانوا يقدون إلى مرید البصرة . فلقد منهم
كثيرا من فصاحتهم ، وارتشف هنا البيان العربي الصافي ، وهذه اللهجة الصحيحة .
وتلك المعرفة الفطرية القوية .

ويعرف التاريخ في عصر الجاحظ أربعة من ضربوا بسهم كبير في وفارة الانتاج
الفكري والتأليف ، واستووا على غاية قصر عنها من عدام .

قالواحد : أبو عبيدة معمر بن المثنى ١١٠ - ٢٠٩ وكان من أهل البصرة ولد وتوفي
بها . قال صاحب الوافيات : « وهاتيفه تقارب ماتى مصنف ، . وقد سرد ابن
النديم منها في الفهرست مائة وخمسة ، وقال فيه الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي
ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه ، .

والثاني : أبو الحسن علي بن محمد المدائني ١٣٥ - ٢٢٥ له نحو من مائتين وأربعين
مصنفا على ما أحصيت في فهرست ابن النديم . وقد روى عنه الجاحظ في البيان
وفي الحيوان روايات كثيرة .

والثالث : هشام بن محمد السكلي الكوفي المتوفى سنة ٦٠٢ هـ ددت كتبه في الفهرس فآلفتها نحو مائة وأربعين مؤلفا .

والرابع إمام العربية والدين محمد بن إدريس الشافعي ، ولد سنة ١٥٠ هـ وهي سنة ولادة الجاحظ وتوفى سنة ٢٠٤ .

وقلت : إمام العربية ؛ لأن كثيرا من الناس لا يعلم فضل الشافعي في هذه الناحية والحق أن الشافعي كان من أدق الناس خبرة بالعربية ، وأوسعهم فقه فيها ، وإطلاعا على أسرارها وحسبك أن تعرف أن الأصمعي وهو الإمام الكبير — قرأ على الشافعي أشعار الهذليين وضبطها وصححها . وحسبك أيضا أن تطلع على كتابيه العظيمين ، وهما الآم في مسائل الفقه ، والرسالة وهي في مسائل أصول الفقه ، فتعرف إلى أى مدى وصل هذا الرجل في معرفة العربية ، ودقة التعبير العربي كذلك . وهذا ما حمل الجاحظ أن يقول فيه : « نظرت في كتب هؤلاء التبعة الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تأليفا من المطلبي ، كأن لسانه ينظم الدر » .

وقد سرد ياقوت من كتب الشافعي مائة واثنين وأربعين كتابا ، منها كتب تدخل في كتاب الآم .

عاصر الجاحظ هذا الرهط ، وأدرك هذه الجماعة التي منحت الثقافة العربية ثراء وافرا ، فكان له بهم أسوة ، ونهج نهجهم الذي سلكوا . وكان ذلك إلى ما وهبه الله من امتداد العمر ، وتملك الفصاحة ، من أقوى الأسباب التي تضافرت على إنشاء مكتبة الجاحظ .. الغنية بمردها وبقيمتها الادبية والفكرية والدينية أيضا .

ومن العوامل القوية التي أدت إلى إثراء مكتبة هذا الرجل ، شدة ولوعه بالقراءة وجلده عليها . قال أبو هفان : « فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى انه كان يكثرى دكا كين الوراقين ويبيت فيها للنظر » .

وسائل النشر في عصر الجاحظ

ويعجب العاجب من وجود هذه الظاهرة الغريبة في ذلك العصر .. أعنى كثرة المؤلفات لرجل واحد . يعجب العاجب لظهور ذلك في عصر كانت وسائل النشر فيه غير متوافرة . فليست هناك مطبعة ، وليست هناك هيئات أدبية تعمل على اذاعة

المؤلفات ونشرها . ولم يكن القراء حينئذ بالكثرة التي نراها الآن .. فإلى السر إذن في ذلك ؟ .

لم تكن هناك مطبعة حقا ، تستطيع إخراج الآلاف من الكتب في وقت وجيز ولكن أمرا آخر له خطره وجليل شأنه ، كان يقوم مقام المطبعة ، وكان له نشاط لا يستهان به . ذلك هو النظام الذي كان يعرف بنظام الوراق . يتخصص به أناس معروفون ، ينقلون الكتب ويكتبونها ، ويشترونها ويشرونها ويجلدونها ، ويصحونها أحيانا .. هؤلاء الوراقون كانوا بمثابة مطابع حية تنشر المعارف في تلك العصور القديمة ، وكان لهم خطر عظيم لا يقل عن خطر هذه المطابع الحديثة في عصرنا هذا .

والذي يتصفح معجم الأدباء لياقوت ، يستطيع أن يمس عظمة هذه الدولة ، أعني دولة الوراقين ، الذين كان بينهم كثير من أعلام الأدباء والعلماء والشعراء . وبحسبك أن تعرف أن ياقوتا نفسه كان وراقا ينسخ الكتب بالأجر كما يحدثنا بذلك ابن خلكان . وكان كذلك من كبار تجار الكتب . قال يتحدث عن نفسه في أثناء ترجمة قابوس بن وشمكير : « توجهت إلى الشام وفي صحبتي كثير من كتب العلم أتجر فيها » .

وياقوت في كتابه « معجم الأدباء » ناقد صير في تلك الطائفة من الوراقين . فيقول : « هذا ملبح الخط ، متفن الضبط » ، ويقول : « هذا رديء الكتابة ، سقيم الخط » ، وبما قاله في ترجمة من يدعى الفضل بن عمر بن منصور . « وخطه في غاية الجوده ، على طريقة ابن هلال البواب . ولذا أوردناه في هذا الكتاب » . فيجعل سبب ذكره في هذا المعجم أنه وراق جيد الخط حسن الكتابة .

وحسبك أيضا أن تعرف أن ابن النديم صاحب الفهرست كان أحد أولئك الوراقين الاعلام . وأن تعرف أن صناعته هذه الجليلة هي التي يسرت له أن يخرج لنا هذا الكتاب الخالد ، الذي نرجع إليه كلما أظلمت علينا مسالك البحث في غيره من الكتب ، فنظفر منه بما يروى الغلة ويعين على التحقيق .

وأما الهيئات الادبية فكانت معروفة أيضا ، وإن لم تكن بمظهرها الحديث الذي

نلسه بين ظهرانينا . فؤلاء الوراقون الالى ذكرت كانوا من أعضاء هذه الهيئة . وكان أيضا من أشخاص الولاة والخلفاء هيئات أدبية تعمل على تشجيع نشر الكتب وإذاعتها واجازة مؤلفيها بالمنح العظيمة . والمعايا الفاشية . وكانوا ينفقون على التأليف وعلى الترجمة وسائر ضروب التثقيف العام والخاص مالا يستهان به من الاموال الطائلة . ويمتد بنا القول لو ذهبنا في بيان ذلك الجود الحائمي الذي كانت تسخر به أيدي الخلفاء والولاة والسراة .

وأما أن القراء لم يكونوا كثيرين في تلك العصور ، فليس ذلك بمؤثر في ذبح الثقافة ، وانبلاج نورها بين الناس . بل نستطيع أن نقول : ان المثقفين في ذلك العصر كان عددهم يفوق عدد المثقفين في عصرنا هذا .

وقلت : : المثقفين ، ولم أقل : المتعلمين ، لأن نسبة المتعلمين في عصرنا هذا أكثر عددا بلاريب من المتعلمين في عصر الجاحظ . ولكن المثقفين أعنى من توغلوا في مختلف نواحي العلم توغلا كبيرا كانوا في عصر الجاحظ أكثر عددا منهم في عصرنا هذا ، فكان هناك عبيان يفتون في مسائل الفقه ، وكانت هناك جوار يقن الشعر ويفشين مجالس الأدب ، ويروين حديث الرسول . وكان أيضا رجال كثيرون لا يحصيهم العدد ، وتعرفهم كتب التراجم وكتب الرجال .

كان من أولئك المثقفين المنورين مشجع قوى على اثناء المكتبة العربية ، وعلى كثرة انتاج المؤلفين وكثرة انتاج المؤلف الواحد أيضا .

أسلوب الجاحظ في التأليف

سلك الجاحظ مسلكا غريبا في التأليف ، فطرق أبوابا عجيبة منه ، فهو يتحدثنا عن البجلاء ، وعن الحاسد والمحسود ، وعن تفضيل النعاق على الصمت ، ويحدثنا عن حبل اللصوص ، وعن غش الصناعات .

ويتكلم في القيان ، وفي أخلاق الكتاب ، وفي المعلمين والطفيليين والملوك والمغنين ، وأخلاق الفتيان ، رفضائل أهل البطالة .

ويتحدث عن جميع الأنواع البشرية من ترك ، وصقالبة ، وجران ، وسودان وبيض ، وعرب وعجم ، وعرجان وبرصان وحول وعور .

وعن الطوائف الدينية، كالشيعة، والزيدية والمشيبة والجهمية والمعتزلة ويذكر لنا مذاهب اليهود والنصارى والمجوس.

يتحدث عن نقض مذاهب الأطباء، وعن التفاح والنيذو والقلم والكتب، والنرد والشطرنج. يصنع في كل من أولئك كتابا. فكان الجاحظ لم يترك شيئا مما يحول بخاطر إنسان، أو يمر بذهنه، إلا كتب وأبدع إبداعا وأوفى على الغاية.

وأذكر هنا قولاً صادقا لآل العيناء.. وذلك أن سائلا سأله وقال: ليت شعري أى شيء كان الجاحظ يحسن؟ فأجابه أبو العيناء: ليت شعري أى شيء كان الجاحظ لا يحسن؟

وشيء آخر امتاز به الجاحظ من بين جمع المؤلفين في عصره، وهو ادمان الفكاهة. فهو لا يبرح يشيع الفكاهة في تصانيفه، ولا يدع فرصة تصلح للفكاهة والمطايبة إلا انتهزها انتهازا. وأنت تستطيع أن تتصفح أى كتاب أو أية رسالة له، فتجد في ذلك البرهان واضحا، والدليل ساطعا. وتعد رسالة الترييع والتدوير، التي صنعها في من يدعى أحمد بن عبد الوهاب أروع ما كتب الجاحظ في فن الفكاهة.

وكان أحمد — فيما يقول الجاحظ — مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول وكان مربعا وتحسبه مدورا، وهو في ذلك يدعى السباطة والرشاقة.

يقول له الجاحظ: وهل غاية الجميل إلا وصفك، وهل زين البليغ إلا مدحك وهل يأمل الشريف إلا اصطناعك. وهل يقدر الملهوف إلا غيائك. وهل للباح رجز إلا فيك، وهل يحدو الحادى إلا بذكرك؟ لا بل أين الحسن المضممت، والجمال المفرد، والقد العجيب، والكمال الغريب، والملح المشور، والفضل المشهور إلا لك وفيك. وهل على ظهرها جميل حبيب، أو عالم أديب إلا وظلك أكبر من شخصه وظنك أكبر من علمه؟ وهل أغلت الخضراء ذاهجة أصدق منك، وهل حملت النساء أجل منك.

ويقول: وما على ظهرها خرد إلا وهي تغبر باسمك، ولا قينة إلا وهي تنقي

بمدحك ، ولا فتاة الا وهى تشكو بتاريخ حبك ولا محجوبة الا وهى تنقب الخروق
لمرك ، ولا عجوز الا وهى تدعوك ،

ويقول فى رسالة النساء : « وبعد فايما أحسن وأملح ، وأشهى وأغنىج : أن
يفنيك فخل ملف اللحية كك العارضين أو شيخ متخلع الأسنان مفضن الوجه ثم
يفنيك اذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيت زهيرا تحت كل كل خالد فأقبلت أسعى كالمجول أبادر
أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها باسمينة ، أو كأنها خرطت من
ياقوته أو من فضة نجلوة — بشعر عكاشة بن محصن :

من كف جارية كأن بناتها من فضة قد طوقت غنايا
وكان يمتاها اذا تقرت بها تلقى على التكف الشمال حسابا
وللجاحظ فى البيان والتبيين من حشو الفكاهة وجمع النوادر ما اذا مررنا بعض
شواهد طال القول بنا .. وفى كتاب الحيوان مطايبات شتى ، ومتمعة طيبة للقارى .
كان الجاحظ رجلا مؤلفا متصلا بجمهور الناس اتصالا شديدا . فهو جالس
الخلفاء والوزراء والكتاب . وهو أيضا يجلس الى الباعة والكناسين والحواة
والموسوسين والمجانين . وكان يتعرف الى بداة الأعراب ، كما كان مصادقا للترك
والروم والسنديين وكان يجالس الشيوخ والمسان ، كما كان يجالس الصبيان .

روى ياقوت أن سلام بن يزيد قال بصف دخوله على الجاحظ مرة : قال سلام :
« وسألت عن منزله — يعنى منزل الجاحظ — فأرشدت ودخلت اليه فاذا هو
جالس وحواليه عشرون صليا ، ليس فيهم ذو لحية غيره . »

وواضح أن تلك المحادثة قد أكسبته معرفة كاملة بطبائع الناس ، وأطلعته على
كثير من مصادر الفكاهة .

ونستطيع أيضا أن نقول : ان الجاحظ كان صيادا ماهرا للظرفاء . واليك مثلا
من ذلك .

قال الجاحظ : كان يأتينى رجل فصيح من العجم ، فقلت له : هذه الفصاحة
وهذا البيان ! لو ادعيت فى قبيلة من العرب لكنت لاتنازع فيها .



وافرا ، وأعداهم ذلك على جمال فنهم ، ونضرة حديثهم ، وظهر عليهم فضل الجاحظ ظهورا بينا .

والأمر الرابع — الذى نلجحه فى كتب الجاحظ هو التنويع وهذا راجع إلى طبيعة الأستاذية فى الجاحظ ، التى أشرت إليها قريبا . فأخص خصائص المعلم أن يتنقل بتلاميذه كلما طال عليهم الوقت فى معارف شتى ، حتى لا يملوا درسه ويسأموا ما يلقيهم إياه من مسائل العلم أو مسائل الأدب .

وهو يقول فى ذلك : « فأتى رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال عليها ذلك . وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة » .

ويردد قول أبى الدرداء : « إني لأجمل نفسى ببعض الباطل ، كراهة أن أحل عليها من الحق ما يملسها » .

ولذلك أيضا نجد الجاحظ يصطنع الاستطراد . ويستعمل التعقيب ، ويمس ذلك عجزا منه ولا التفاتا عن الغرض الذى نصب له نفسه ، وإنما ليروح عن القارى . ويستجلب نشاطه ويجدد انتباهه .

وأمر خامس هو من خصائص مكتبة الجاحظ ، وهو تناولها كثيرا من الأمور التى تبدو أنها متناقضة ، والتى تشعر القارى لأول وهلة أن ذلك الرجل يناقض نفسه فيما يكتب فهو يمدح التئيد حينما يذمه . حينما آخر ، وهو يمدح الوراقين تارة ويذمهم أخرى .

ولكن المنصف يرى أن الرجل لم يناقض نفسه ، بل نظر إلى الشيء الواحد نظرتين من ناحيتين مختلفتين . ولكل أمر من الأمور ما يقتضى مدحه حينما وذمه حينما آخر ، حتى الصدق وحتى الأمانة وهما الأساس الأول للفضائل

وكلكم يذكر قول عمرو بن الأهمم « رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أقيح ما علمت ، وقول رسول الله فى ذلك « إن من البيان لسحرا ، وما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الثانية

وهذه الخاصة الجاحظية هي بلا ريب برهان ساطع على ذكاء روح هذا الرجل وقوة فنه وتعمق اقتداره .

وأمر سادس — تمتاز به مكتبة الجاحظ ، هو حرية الفكر ، التي لا يفتأ ينادى بها عند كل مناسبة . فهو شديد التهمك حينما يتحدث عن حجة لا يسيغها العقل ، ولا يقرها الفكر الحر . وهو يحشد أقوى ما يستطيع من الحجج حين يرض رأيا لا تحب الجاهل أو المتعلقين بأذيال الخرافات والأساطير ، فإذا الأساطير والخرافات تنهالك في يديه ، كما تنهالك الليل البهيم للصبح الطالع .

وهو كذلك يعترض كثيرين من العلماء وكبار الفلاسفة . وفي مقدمتهم أرسطو وكذلك أستاذه أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام . وكتاب الحيوان ميدان فسيح يحول فيه صاحبنا ويصول ، برأيه الحر ، ويرفع علم الثورة على المعتنقين من المفسرين والقصاص والمتزمتين ، بل على المتحدثين من اللغويين والأدباء ، فهو يتندد في الجزء الأول من الحيوان بكتب أبي الحسن الأخفش واستغلقها على الناس ، وهو يتهكم بالمفسرين وأصحاب الأخبار الذين زعموا أن أهل سفينة نوح كانوا قد تأذوا بالفأر فغطس الأسد عطسة فرمى من منخره بزوج سنابير . فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد . وأخرج الفيل زوج خنازير . فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل . ثم هو يروى سخرية أبي عبيدة من هذا الخبر ، وضحكه مما فيه من خرافة . والجاحظ أيضا يتهكم بالقصاص ، ويصور لنا صورة طريفة منهم متمثلة في شخصه أبي كعب القاضى ، حين حمل المستمعين على التمليل والتكبير لينخى أمرا مستنكرا ضاقت به نفسه ولم يستطع إمساكه .

ويروى أيضا أن أبا كعب هذا أرسل رسولا له إلى مجاس الوعظ في مسجد عتاب ، ومعه هذه الرسالة : يقول لكم أبو كعب انصرفوا ؛ فإنى قد أصبحت اليوم مخورا ! .

وأمر سابع تمتاز به مكتبة الجاحظ ، هو كثرة تناول المسائل الكلامية ، والحرص على اقتناص مناسباتها في أثناء الكتب . فبينا نرى الجاحظ يفيض في الحديث عما قال العرب من شعر بديع في النار إذا به يهجم على مسألة من مسائل

يخض فيها أحد من قبل ، أو التي يحجم الناس عن الكتابة فيها ، استهانة بشأنها .
أو فرارا من التهمة فيها . ولكن الجاحظ رجل جرى ، رجل جرى حقا . فلم
يحدثنا التاريخ أن رجلا ألف كتابا في فيماذا ؟ في حيل اللصوص . ولكن
الجاحظ يتكلم في ذلك ويسهب في القول ويأتي بالمعجب العاجب . وقد ذكر من
هذا الكتاب فصلا في الجزء الثاني من الحيوان . كما نقل الراغب الأصفهاني في
محاضراته بعض هذه الفصول ، فتعرف أن هؤلاء اللصوص كانت لهم مدرسة ، وكان
لهم أستاذ يدعى « عثمان الحياط » وكان زعيمهم . قالوا سمي بالحياط ؛ لأنه نقب
على أخدق الناس وأبعدهم في صناعة التلصص وأخذ مافي بيته . وخرج وسد النقب
كأنه قد خاطه . فسمى بذلك .

ومن أقوال عثمان الحياط لبعض أتباعه ومريديه من اللصوص : « لم نزل الأم
يسبي بعضهم بعضا ، ويسمون ذلك غزوا ، وما يأخذونه غنيمة ، ويدكرون أن
ذلك من أطيب الكسب . وأتم في أخذ مال الذر والفجرة أعذر . فسموا أنفسهم
غزاة ، كما سمي الخوارج أنفسهم شراة ! » .

ومن مأثور قول عثمان الحياط : « اللص أحسن حالا من الحاكم المرتضى ، والقاضي
الذي يأكل أموال اليتامى ! » .

وقد كتب الجاحظ أيضا في « غش الصناعات » ، قال صاحب الفرق بين الفرق
في شأن هذا الكتاب الخطير : « وقد أفسد به على التجار سلعهم » .
وغير هذين في هذا الفن كثير .

والأمر التاسع : أن هذه المجموعة القيمة من كتب هذا الرجل ، ترسم لنا صورة
طويلة عريضة من صور الحياة في العصر العباسي . هذه الصورة نرى فيها الثقافة
الفكرية في نواحيها المتعددة ، وفروعها المتوشجة . وكأن هذا الرجل لم يترك علما
من العلوم التي عرفها القوم ، ولا فنا من الفنون إلا اطلع عليه وأخذ منه بنصيب
قليل أو كثير .

وهذه الصورة أيضا نرى فيها الحياة السياسية التي كان يحياها القوم . ففي رسالته
إلى الفتح بن خاقان ، التي تتضمن مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، يريدنا يبلغ توغل

الترك والفرس في سياسة الدولة العباسية ، ومقدار سلطانهم واعتزازهم بأنفسهم ، ويروى لنا طرفا من أمر الخوارج ويصف لنا بأنفسهم .

وهذه الصورة أيضا نرى فيها الحياة المدنية ، حتى لكأنما نعيش العباسيين ، نرى منازلهم وحماماتهم ومصاييحهم ، وملابسهم ، وطعامهم ، ومشاربهم ، وآدابهم وصناعاتهم ، ونظمهم الاجتماعية والصحية والعمرانية . وغير ذلك من دقائق الحياة التي انتبه الجاحظ إليها انتباها دقيقا ، ولا سيما في كتابه البخلاء ، الذي يعتبر بحق أصدق مصورة راسمة للعصر العباسي ، وأهم مرجع فيه .

ولا يقتصر الأمر على تصوير العراق ، فهو يصور أيضا أحوال سائر الأمم المعاصرة من الفرس والهند والصين وأهل مصر والمغرب .

لذلك كانت مكتبة الجاحظ سنداً قويا لمن أراد أن يلم بدقائق العصر العباسي ، وأن يتعرف إلى الحياة العامة فيه .

والأمر العاشر : هو اهتمام الجاحظ بتسجيل الحياة اليومية . وهو في ذلك قد ضرب الرقم القياسي — كما يقولون . فغيره من المؤلفين إنما كان جل همه أن يذكر الأخبار القديمة ، والآثار المروية ، كما كان يفعل المدائني وابن قتيبة ومن أتى بعدهم من رواة الأخبار . فهم لا يولون الأخبار المعاصرة إلا الجانب اليسير من اهتمامهم ولكن الجاحظ كان لا يفتأ يذكر أسماء معاصريه ، ويروى نوادرهم ، ويتندر بهم إذا شاء . وهو لا يدع شيخا أو شابا ، ولا عاقلا أو مجنونا ، ممن تقع له النادرة ، أو تصدر عنه الفكاهة ، أو يتصل به الخبر إلا عرض ذلك بين يدي قارئه ، وأطلع عليه إطلاعا فهو بلا ريب صحتي العباسيين ، وهو بلا ريب شيخ الصحافة العربية ، وأول من حاول إنشاء الصحف والمجلات العربية .

ذبوع كتب الجاحظ

كانت كتب تذيب وتشيع ، وتطير إلى الآفاق البعيدة في حياته للرجة الملحة فيها ولحرص الناس على ما فيها من خير كثير .
واليك صورة تنبيك عن مبلغ هذا الذبوع ، وتقف بك على مقدار

روى صاحب تاريخ بغداد عن يحيى بن علي أنه قال : « حدثني أبي قال : قلت
للجاحظ : إني قرأت في فصل من كتابك المسمى كتاب البيان والتبيين إن مما يستحسن
من النساء اللحن في الكلام واستشهدت ببيت مالك بن أسماء :
وحديث أذه هو مما ينعت الثاعنون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا . نا وخير الحديث ما كان لحنا
قال : هو كذلك . قلت : أفأسمعت يخبر هند بنت أسماء — وهي أخت صاحب
هذين البيتين — مع الحجاج حين لحن في كلامها فعاب ذلك عليها فاحتجت بيت
أخيها ، فقال لها الحجاج : إن أخاك أراد أن المرأة فطنة فهي تلحن بالكلام إلى غير
المعنى في الظاهر ، لتستر معناه وتورى عنه ، وتفهمه من أرادت بالتمريض ، كما قال
الله تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » ، ولم يرد الخطأ من الكلام . والخطأ لا يستحسن
من أحد . فوجم الجاحظ ساعة ثم قال : « لو سقط إلى هذا الخبر لما قلت ما تقدم
فقلت له : فأصلحه . فقال آلآن وقد سار الكتاب في الآفاق . هذا لا يصلح !
فهذه صورة من صور ذيع كتب الجاحظ .

تقدير القدماء لكتب الجاحظ.

ترك القول لياقوت يحدثنا حديثا عجبا في هذه الناحية ، فهو يروى أن أبا حيان
قال : « ومن عجب الحديث في كتبه ما حدثنا به علي بن عيسى النحوي الشيخ الصالح
قال : سمعت ابن الاخشاد شيخنا أبا بكر يقول : ذكر أبو عثمان في أول كتاب
الحيو أن أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست ، ومر بي في جنتها : الفرق بين النبي
والمثني وكتاب دلائل النبوة ... فأحيت أن أرى الكتابين ولم أقدر على واحد
منهما وهو كتاب دلائل النبوة ... فمعنى ذلك وسام في سوء ظفري به . فلما شخصت
من مصر ودخلت مكة — حرسها الله — حاجا ، أقمت مناديا بعرفات بنادي —
والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازع أوطانهم ، وتباين قبائلهم
وأجناسهم من المشرق إلى المغرب ، ومن مهب الشمال إلى مهب الجنوب ، وهو المنظر
الذي لا يشابهه منظر — : رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمثني
لأبي عثمان الجاحظ على أي وجه كان !

قال : فطاف المنادى في ترابيع عرفات وعاد بالحبيبة وقال : حجت الناس منى ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به .

قال ابن الاخشاد : وإنما اردت بهذا ان ابلغ نفسى عذرها . قال ياقوت : وحسبك بها فضيلة لابي عثمان ان يكون مثل ابن الاخشاد وهو من هو في معرفة علوم الحكمة ، وهو رأس عظيم من رؤوس المعتزلة يستهان بكتب الجاحظ حتى ينادى عليها بعرفات والبيت الحرام . قال ياقوت : وهذا الكتاب موجود في ايدي الناس اليوم لانكاد تخلو خزانه منه . واقد رايت انا منه نحو مائة نسخة او اكثر . ثم نعود إلى المسعودى — وهو من يعد في خصوم الجاحظ — فنجده يقول في نعت كتب الجاحظ : « وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلج صدا الأذهان وتكشف واضع البرهان ؛ لانه نظمها احسن نظم ، ورصفها احسن رصف ، وكساها من كلامه اجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسأمة السامع خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة طريقة . وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو اشرفها ؛ لانه جمع فيه بين المشور والمنظوم ، وغرر الاشعار ، ومستحسن الاخبار ، وبلغ الخطاب ما لو اقتصر عليه مقتصر لا كفى به ، وكتاب الجيوان ، وكتاب الطفيليين والبخلاء . وسائر كتبه في نهاية السكال ، ما لم يقصد منها الى نصب او الى دفع حق » .

ثم تراجع إلى الوراء ونسأل الجاحظ نفسه أن يحدثنا حديث الصدق عن كتبه ونظرة الناس اليها ، فإذا هو يجيبنا في ثقة ويقين واعتزاز بالنفس . قال في الجزء الثاني من البيان :

« ولما قرأ المأمون كتي في الإمامة فوجدها على ما أمر به ، وصرت اليه — وكان قد أمر الزيدى بالنظر فيها ليخبره عنها — قال لى : قد كان بعض من ترتضى عقله ونصدق خبره ، خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة ، وكثرة الفائدة . فقلت : قد ترى الصفة على العيان فلما رأيتها رأيت العيان قد أرى على الصفة . فلما فليتها أرى الفلى على العيان . كما أرى العيان على الصفة » .
وهذه شهادة تاريخية جلية . لها قيمتها ولها قدرها .

عدد كتب الجاحظ

والآن ننتقل الى الحديث عن عدد كتب الجاحظ . فنجد أن هذا الرجل قد خرج عن زهاء ثلثمائة وستين مؤلفا . في ألوان شتى من المعرفة . رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد سيط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ . قال في كتابه « مرآة الرمان » عند ذكر الجاحظ : « أما مصنفاته فثلثمائة وستون مصنفًا . ووقفت على أكثرها في مشهد الامام أبي حنيفة » . هذا أقصى تقدير عددي وصلت اليه كتب الجاحظ . على أن أدنى ما تنزل اليه أن تكون مائة ونيفا وسبعين كتابا قال ابن حجر في لسان الميزان : « وسرد ابن النديم كتبه ، وهي مائة ونيف وسبعون كتابا » هذا آخر كلام ابن حجر . ووجدت ياقوتنا في معجم الأدباء قد سرد منها مائة وثمانية وعشرين مصنفًا . وليس يمكننا القطع برقم خاص لعدد كتب الجاحظ . ولكن نستطيع أن نقول : إن الجاحظ كان من اخصب علماء عصره وادبائه اتاجا أن لم نقل انه اخصهم واغزرهم فيضا !

ويسأل السائل : اين طوح الدهر بهذه المجموعة الجاحظية الهائلة ؟ وكيف لم يظهر للناس منها الا مقدار يسير تعدده اصابع اليد ؟

فالحق أن كثيرا من كتب الجاحظ قد ضاع فيما ضاع من آثار السلف ، وعدت عليه عوادي الأيام والناس ايضا .

فالفوضى السياسية التي منيت بها الأمم الاسلامية في مناساتها الأولى والتي كانت قائمة في أكثر ما تقوم على التدمير والتخريب والانتقام من غزوات السلاجقة والتتار وغيرهم — جعلت تهدم في هذا الصرح الفكري حتى اتت على الكثير من قواعده ، ولم تبق إلا وشلا من محيط

- وكذلك كان لنهود الهمم وضعف العزائم أثر كبير في ضياع هذه النفائس وفقدائها .

ومهما يكن فقد ابقت الأيام لنا من آثار هذا الرجل مقدارا صالحا ، سار

بعضه بين الادباء ، فكان له فضل عظيم في تقويم الستهم وتأديهم ، وحث بعضه الآخر خزائن متناثرة في انحاء المعمورة ، اشار اليه المستشرق الكبير د بروكلمان ، في معجمه . وهي اكثر من سبعين كتابا ، تزدان بها خزائن المتحف البريطاني ، وداماد ابراهيم ، وكوبريلي ، والفاخر والموصل ، وجوتا ، وميلانو ، وغيرها .

وقد أخذت على نفسي عهدا ان اقوم بخدمة هذه المكتبة وبدات منها بكتاب الحيوان ، وعسى الله ان يهب لي من سعة الوقت والجال مايسعني باستحضار هذه الكتب ونشرها بين ابناء العربية نشرنا عليها صالحا ، وفاء لهذا الرجل العالمى العظيم ووفاء لهذه الدار التي حجب إلى اساتذتها ادب الجاحظ فصرت إلى ان اولع به ولوعا ، واغرم به غراما .

واشكر جماعة دار العلوم لما اتاحت لي من هذه الفرصة السعيدة واهنتها بهذه النهضة الثقافية في عهدها الجديد ، الذي يذكى شعلته سعادة رئيسها وحضرات اعضائها الاجلاء .

عبد السلام هارون
المدرس بمدرسة الظاهر